

دراسات محكمة

الدّين وإعادة التّشكّل في الزّمن الكوفيدي:  
طوفوا حول الإنسانيّة

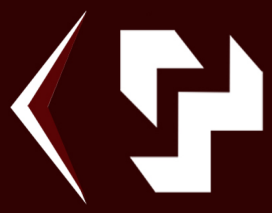
منية العلمي

أستاذة بجامعة الزيتونة - تونس

All rights  
reserved



جميع الحقوق  
محفوظة



# الدّين وإعادة التشكّل في الزّمن الكوفيدي : طوفوا حول الإنسانِيّة

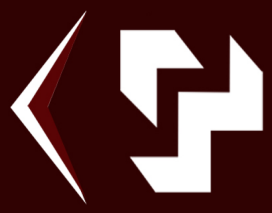
مقدمة:

لطالما تحدّثنا في مناسبات عديدة ومتنوّعة، عن ضرورة الانتقال من معاينة النصوص الدينيّة من زاوية حرفيّة ظاهرية، نحو زاوية مقاصديّة تبلغ روح الأحكام وجوهر الدّين، وعلى رأي الجويني في برهانه: "ومن لم يتفطن لوقوع المقاصد في الأوامر والنّواهي فليس على بصيرة في وضع الشّريعة"<sup>1</sup>.

ولطالما حاورنا، وكتبنا، وحاضرنا، حول هذه الرّؤية المنهجية في عديد المناسبات، ودافعنا عن الحاجة الماسّة لتوّخي هذا المنهج الدّلالي في عمليّة القراءة والفهم والتبليغ، وكذلك الإرشاد والتّوجيه. ولقد كلّفنا ذلك ما كلّفنا من عنف في بعض ردود الأفعال من أصحاب الفكر المحنّط، على مستوى شخصي، وعلى مستوى ثقافي واجتماعي، كلّ ذلك حدث ضمن إطار عامّ متمسك بالحرفيّات والنّقول، يخشى المواجهة المنهجية، كما يخشى الخروج بمفاهيم جديدة غير التي يباركها العامّة ويعتقد فيها قياديّوهم ورموزهم الدينيّة.

واليوم، ومع ما يعيشه العالم جرّاء تفشي فيروس كوفيد-19، ومن خلال متابعتنا لأغلب ردود الأفعال الفرديّة والجماعيّة والمنتمية لطبقات اجتماعيّة وثقافية متنوّعة، لفت نظرنا تحصّن شقّ كبير من التونسيين والتونسيّات، وغيرهم من كامل البلاد العربيّة، بما نسمه بالمقاومة الروحيّة / الدينيّة، والتي لجأ إليها غالبيّة البشر في مختلف أنحاء المعمورة كردّ فعل فطريّ في مواجهة هذه الجائحة. فكان أن لاحظنا إجماعاً منهم على تثنين البعد الرّوحي والإنساني العميق للدّين، مركزين في تفاعلاتهم تلك، على مفاهيم إيتيقيّة، وروحيّة، في غياب تامّ للاهتمام بمفاهيم مستمدّة من سياقات محدودة، منتصرة لمصلحة فرديّة، أو خادمة لجهة على حساب أخرى، أو مغيبّة لجنس أو نوع على حساب آخر... ولعلّ ذلك ما مثّل دافعاً لنا لصياغة هذه المشاركة. فلقد لاحظنا في إطار متابعتنا تلك، أنّ ما عجزنا عن تبليغه -ربّما- في أشغالنا العلميّة، نجح الفيروس اللّعين في دفع المجموعات البشريّة نحو الوعي به.

<sup>1</sup> - الجويني أبو المعالي، عبد الملك بن عبد الله بن يوسف (ت478هـ): البرهان في أصول الفقه، تحقيق: عبد العظيم الديب، ط1، الناشر: دولة قطر، ج1، ص:101.



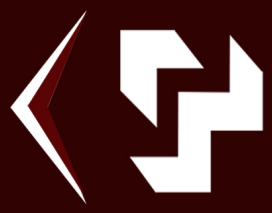
## الدّين وإعادة التشكّل في الزّمن الكوفيدي: طوفوا حول الإنسانية

وعليه، تطرح هذه المشاركة خاصيّة التفاعل الطبيعي/الفطري في العلاقة بالنصّ الدّيني، هذا من جهة، كما تطرح من جهة أخرى، في تفرّيع لتلك الخاصيّة، ديناميكيّة العلاقة بين الفرد المؤمن-أيًا كانت درجة إيمانه والتزامه- والذّات العلية، وذلك من خلال توّسل المنهج المقاصدي في قراءة وتدبّر النصّ الديني، فهل تمكّن الفيروس من أن يفرض علينا مراجعات منهجيّة ومضمونيّة طالما وقع تأجيلها في علاقة الفرد بالمقدّس؟

كان منهجنا نظريًا، وكان منهج الفيروس تطبيقيًا، مباشرًا، وشاملاً، غير معنيّ بالتصنيفات، ولا بالتقسيمات، ولا بالطبقات، ولا بالأنساب، ولا بغيرها. نجح الفيروس حيث فشل الأكاديميون، والمثقفون والدعاة المستنبرون، في إعادة تشكيل الوعي بالمسألة الدينيّة وفق تراتيب قيمية، إنسانية، عالميّة، مستمدة من التصوّر الإيماني للإنسان وللوجود من حوله، بل والأغرب من ذلك، نجح في إلغاء وظيفة من أقدم الوظائف على وجه الأرض، وهي وظيفة الوساطة بين العبد وخالقه، فلا منابر، ولا دعاة، ولا مناسك، ولا شعائر منعت من تحقيق التّواصل المباشر بين الله والإنسان.

فمثلاً لاحظنا أنّ الجامع المانع بين مختلف التّدوينات ذات المحتوى الدّيني على صفحات التّواصل الاجتماعي، والصدّارة عن رواد له من الجنسين، تلقوا تكويناً علمياً مختلفاً، ومن شرائح عمريّة مختلفة، ومن مناطق جغرافيّة متنوّعة، أنّ اللجوء كان في تلك التّدوينات والنشريات، للدّعاء في المرتبة الأولى، كشكل مباشر للعلاقة مع الله، ثمّ إلى الأناشيد الصوفيّة، وأيضاً إلى الآيات القرآنيّة ذات البعد القيميّ الأخلاقي والإنساني، أو للأحاديث النبويّة الدّاعية إلى الفضائل وإلى قيم التّراحم، والتكافل، والإيثار، والحائّة كذلك على خلق الإحسان، والتّضحية والعطاء، حتّى أضحت تلك الوسائط التّواصلية الافتراضيّة، فضاء لعائلة روحيّة واحدة ملتفة حول المشترك الدّيني الإنساني.

لقد نجحت هذه الأزمة العالميّة في إحياء وتعزيز المنهج المقاصدي في التّعامل مع النّصوص الدينيّة، هذا المنهج الذي أثبت جدارته في كلّ مرّة على الالتحام بالواقع البشريّ بتقلباته وبأحواله المختلفة، والواقع أنّ علاقة المقاصد بالتفسير المنشغل بواقع النّاس في تقلباته المختلفة ورهاناته المعاصرة، علاقة تأسيسية، فالقرآن الكريم هو



## الدِّين وإِعادة التَّشكُّل في الزَّمن الكوفيدي: طوفوا حول الإنسانِيَّة

المصدر الرئيسي لتعيين المقاصد الكلية، ومنه استنبطت الكثير من الأحكام والعلل الجزئية، ومنه استخلص علماء الأصول القواعد الفقهية الكلية، ويظهر ذلك جلياً في استدعاءهم لآيات القرآن الكريم كشاهد على تلك القواعد<sup>(2)</sup> باعتبارها منظومة مقاصدية لها أصولها الحاكمة، ونماذجها التطبيقية، في فقه الصحابة، والتابعين، وتابعي التابعين.

فمن القرآن نفسه تجلّت الخصائص العامة للتشريع، مثل العقلانية، والمرونة، والسّماحة، والرّفق، والرّحمة، وغيرها.

والناظر في كتب التفسير يستشفّ هذا النفس المقاصديّ في أهمّها وأبرزها، من ذلك مثلاً أنّ القرطبيّ جعل القرآن مشتملاً على ثلاث خصائص وهي: التّوحيد، والأحكام، والمواعظ، ولهذا ورد عنه صلى الله عليه وسلم أنّه قال: قل هو الله أحد تعدل ثلاث القرآن<sup>(3)</sup> لأنّها كلّها توحيد<sup>(4)</sup>. وقد استخدم الطبري لفظ "المعاني" وأراد بها: المقاصد الشرعيّة، ومن ذلك قوله في تفسيره عن مقاصد الرّكاة: "والصواب من ذلك عندي: أراد الله تعالى جعل الصدقة في معنيين، أحدهما: سدّ خلّة المسلمين، والآخر معونة الإسلام وتقويته"<sup>(5)</sup>، فمقصد القرآن الهدائي كان حاضراً عند المفسّرين.

ولقد عمل المفسّرون في قضية المقاصد بطريقتين، فهم انطلقوا من استقراء وتفسير النصّ القرآني لتجلية المقاصد وهذا ما وسمه الشّاطبي بتقصيد النصّ، ثم استثمروا المقصد في التّرجيح بين الظنّيات\* وفي استنباط

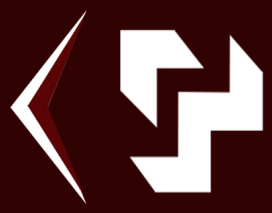
<sup>2</sup> - من ذلك قاعدة "الضرورات تبيح المحظورات"، والمشقة تجلب التيسير"، و"الضرورة تقدر بقدرها"، و"العادة محكمة"، و"اليقين لا يزول إلا بالشك".

<sup>3</sup> - العسقلاني، بن حجر: فتح الباري شرح صحيح البخاري، ج: 9، كتاب فضائل القرآن، باب فضل: (قل هو الله أحد)، حديث رقم: 5013، ص: 71-72.

<sup>4</sup> - القرطبي، أبو بكر: الجامع لأحكام القرآن، تج: عبد الله بن عبد المحسن التركي ومحمد رضوان العرقسومي، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط 1، 2006 م، مقدمة سورة الفاتحة، مج 1، ص: 171.

<sup>5</sup> - ابن جرير الطبري، محمد بن يزيد: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تج: عبد الله التركي، دار هجر للطباعة والنشر، ج: 12، في معرض تفسيره لسورة التوبة، آية مصارف الرّكاة.

\* كما في آية الحرابة: المائدة/33، في كتاب أحكام القرآن لابن العربي، فقد رجّح أن يكون النفي هو السّجن، ورجّح الصّلب حيّاً لأنّه "أنكى وأفضح، وبه يتحقق معنى الرّدع الأصلح.



## الدّين وإعادة التشكّل في الزّمن الكوفيدي : طوفوا حول الإنسانيّة

الأحكام الفقهيّة، وفي الانتصار لمذهب على آخر، وفي التخصيص والبيان والاستثناء من العموم\*\*، وفي تجلية التّكت البيانيّة والبلاغيّة، وفي ترجيح أن يكون النصّ على الحقيقة أو يكون على المجاز اعتدادا بالمقصد<sup>(6)</sup>. لكن السّؤال هنا هل يسمّى استثمار أو توظيف المقصد بهذه الطريقة ضابطا تأويليا أو حضورا آليا منهجيا فحسب؟ نلمح في هذا السّياق حضور المقاصد تنظيرا وتفعيلا في تفسير التّحرير والتنوير للشّيخ العلامة التونسي محمد الطاهر بن عاشور<sup>7</sup>، فالرجل رائد الاتّجاه المقاصدي في التّفسير، وضع فيه مؤلّفه: "مقاصد الشريعة"، وهو يجليّ المسألة بقوله: "مراد الله في كتابه، بيان تصاريّف ما يرجع إلى حفظ مقاصد الدّين وقد أودع ذلك في ألفاظ القرآن التي خاطبنا بها خطابا بيّنا وتعبدنا بمعرفة مراده والاطلاع عليه"<sup>(8)</sup>، ويتابع قائلا: "غرض المفسّر بيان ما يصل إليه وما يقصده من مراد الله تعالى بأنّ بيان يحتمله المعنى ولا ياباه اللفظ من كل ما يوضح المراد من مقاصد القرآن أو ما يتوقف عليه فهمه أكمل فهم أو يخدم المقصد تفصيلا وتفريعا"<sup>(9)</sup>.

ويذهب ابن عاشور إلى اعتبار أصول الفقه آليّة من آليات التّفسير، بمعنى أنّ مقاصد الشريعة هي آليّة من آلياته باعتبارها جزءا منه، فأصول الفقه في نظر ابن عاشور ليست مادّة أساسيّة للتّفسير، ولكنّها تخدمه من جهتين: الجهة الأولى هي: "أنّ علم الأصول قد أودعت فيه مسائل كثيرة هي من طرق استعمال كلام العرب وفهم موارد اللغة أهمل التّنبيه عليها علماء العربيّة مثل مسائل الفحوى ومفهوم المخالفة.

\*\* ومنه استثناء ابن العربي عموم مصرف الغارمين في الزكاة، من استدان في سفاهة، ومستنده نظره إلى المأل، ففي ذلك تشجيع له على الاجترار على سفاهة مثلها.

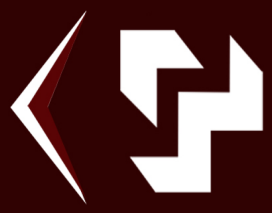
<sup>6</sup> - رشواني، سامر، الاتّجاه المقاصدي في تفسير بن عاشور، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، إسلامية المعرفة، العدد 23، السنة السادسة 2000 م، ص: 81 وما بعدها. وكذلك: الوزاني، التهامي: توظيف المقاصد في فهم القرآن وتفسيره، الموقع الإلكتروني: مجالس الطريق إلى الجنة.

<sup>7</sup> - بن عاشور، محمد الطاهر (ت1879/1973) عالم وفقه تونسي، تنحدر أسرته من الأندلس وترجع أصولها إلى أشرف المغرب الأدراسة، تلقى تعليمه بجامع الزيتونة، ثم أصبح من كبار أساتذته، أمّا كتبه ومؤلفاته فقد وصلت إلى الأربعين، وهي غاية في الدقة العلمية، وتدل على تبحر الشيخ في شتى العلوم الشرعية والأدبية. ومن أجلها كتابه في التّفسير "التحرير والتنوير". وكتابه "مقاصد الشريعة الإسلامية"، وكتابه حاشية التنقيح للقرافي، و"أصول النظام الاجتماعي في الإسلام"، و"أليس الصبح بقرب"، و"التوضيح والتصحيح في أصول الفقه"، و"موجز البلاغة"، وكتاب "الإنشاء والخطابة"، شرح ديوان بشار، وديوان النابغة.... ولا تزال العديد من مؤلفات الشيخ مخطوطة منها: مجموع الفتاوى، وكتاب في السيرة، ورسائل فقهية كثيرة.

<sup>8</sup> -تفسير التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، د.ط، 1984، المقدّمة الثالثة، ج1، ص: 28.

<sup>9</sup> -المصدر نفسه، المقدّمة الثانية، ص: 25-26.

# الدِّين وإِعادة التَّشكُّل في الزَّمن الكوفيدي: طوفوا حول الإنسانيَّة



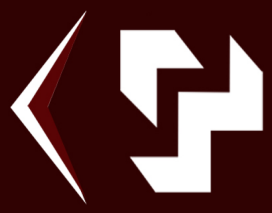
والجهة الثانية: أنّ علم الأصول يضبط قواعد الاستنباط ويفصح عنها، فهو آلة للمفسّر في استنباط المعاني الشرعيّة من آياتها<sup>(10)</sup>، واعتبر ابن عاشور أنّ أعظم وظيفة للمفسّر، هي الوصول إلى كليّات التّشريع، وعاب على المفسّرين انشغالهم بتقصّي معاني القرآن عن انتزاع كليّات التّشريع<sup>(11)</sup>، وبهذا جعل ابن عاشور تفسير القرآن، الطريق لبيان المقاصد، بل اعتبر وظيفة المفسّر الأساسيّة هي تجلية المقاصد القرآنيّة، وهناك موضع ذكر فيه أنّ العلم بمقاصد القرآن الأصليّة من شروط المفسّر، فلقد ورد عنه: "وجب على الآخذ في هذا الفنّ أن يعلم المقاصد الأصليّة التي جاء القرآن لتبيانها"<sup>(12)</sup>. وذكر ثمانية مقاصد أصليّة للقرآن، وجعل الطريق لمعرفة هذه المقاصد النصّ القرآني، وهذه رؤية تكاملية في اعتبار ابن عاشور للمقصد، وذلك لأنّ شرط علم المفسّر بالمقاصد، خطوة منهجيّة ضروريّة لبلوغها، إذ كيف يمكن للمفسّر أن يدرك تلك الغاية وهو يجهل مضامينها ومحاورها وأساليب تشكّلها، فالمفسّر مطالب بانتزاع تلك المقاصد -كليّات التّشريع- مع ما في مصطلح "النتزاع" الذي اختاره ابن عاشور -من معنى الحرص الشّديد والجهد الكبير لبلوغ تلك الغاية، فالمقاصد على هذا الوجه من الحضور، غاية ووسيلة، فهي ضابط منفك عن باقي الضوابط التأويلية بلا ريب.

والواقع أنّ القراءة المقاصديّة تمثّل اتّجاها جديدا، ومتأصّلا، فالتقصيديّون يبحثون عن قراءة لا تهدر قيمة النصّ وخصوصيّاته من حيث تكامله الدّاخلي وعدم إلغائه لبعضه البعض، وغايتها تنزيل معاني القرآن الكريم في سياقها الحضاريّ والثّقافي، فهي تسعى للضحّ في حركة التفسير بالإضافة إليها وتطويرها، فالمقصد لديهم ضابط أوّل في عمل المفسّر، لاسيما والدعوات الحداثيّة لإعادة القراءة وتحديد البحث في الأصول تلقى اهتماما بالغاً لدى نخب الباحثين في الاختصاص والمثقفين عموماً، فلا ريب من أنّ القراءة المقاصديّة - عند المطالبين بتفعيلها كضابط في ضوابط التفسير تعتبر إمكاناً منهجيّاً مطلوباً في سبيل مساندة الوقائع والمستجدّات ومواءمة نسق الحياة السّريع الذي تشهده المجتمعات الإسلاميّة، بما يميّن من تطبيقات أكثر

<sup>10</sup> - ابن عاشور، التحرير، م.س، المقدمة 2، ص: 25-26.

<sup>11</sup> - م.س، المقدمة الأولى، ص: 13.

<sup>12</sup> - م.ن، المقدمة الرابعة، ص: 39.



## الدِّينُ وَإِعَادَةُ التَّشْكِالِ فِي الزَّمَنِ الكُوفِيِّ: طُوفُوا حَوْلَ الْإِنْسَانِيَّةِ

مرونة وأوسع مجالاً للأحكام.

فالمنهج المقاصدي هو المنهج الذي يمتلك القدرة على تفعيل آليّة السّياق، وعلى مراعاة الأحوال، وعلى اعتبار المصلحة.

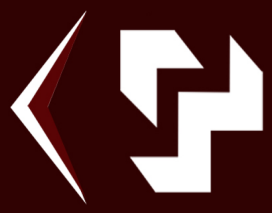
فمن جانب السّياق، وما بين داخلي وخارجي، يمتطي الأخير اللّغة واللفظ والتّركيب، كما المكان والزّمان والموضوع، بغرض استكناه الدّلالة، وفضّ المعنى، واستنباط الحكم، وتنزيل الجميع المنزلة الأقرب لمراد الله تعالى في خطابه المقدّس للبشر.

ولعلّ فيما أورده الزّركشي في محيطه، من قول الشيخ عزّ الدين بن عبد السّلام<sup>13</sup> في كتاب "الإمام"، أفضل تبيان لأهميّة السّياق في استجلاء المراد الإلهي، إذ يقول: "السّياق يُرشد إلى تبين المجملات، وترجيح الاحتمالات، وتقدير الواضحات، وكلّ ذلك بعرف الاستعمال، فكلّ صفة وقعت في سياق المدح كانت مدحا وإن كانت ذمّا بالوضع، وكلّ صفة وقعت في سياق الذمّ كانت ذمّا، وإن كانت مدحا بالوضع، كقوله تعالى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ (الدخان/49).<sup>(14)</sup>

والواقع أنّ اهتمامي بمبحث السّياق تكاثفت دواعيه وتعدّدت مراميه، غير أنّ أبرزها في هذه المشاركة، هذه العلائقيّة اللّصيقة له بالقراءة المقاصديّة فهو أداة فاعلة من أدواتها لا يمكن لها أن تتحقق من دونها، سواء كان من داخل النصّ كسياق الآية والسّورة... أو من خارجه، كالسّياق الاجتماعي أو الثقافي للتّنزيل، هذا من جهة، ومن جهة ثانية ما أثبتته من حسم وجزم في تناوله للمعنى وتحديدده للحكم، فهو -باعتبار ما ثبت له من ارتباط وثيق بعلوم القرآن وبمقاصده، ومن حضور مؤكّد في منظومة لسانيّات النصّ وتحليل الخطاب- يُعدّ غرضا مرؤمًا

<sup>13</sup>- هو عزّ الدين أبو محمد عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم بن الحسن السّلمي الدمشقي ثم المصري الشّافعي، شيخ المذهب، لقّب بسلطان العلماء، ولد سنة 577 هـ أو 578 هـ، درّس وأفتى وصنّف وبرع في المذهب، وبلغ رتبة الاجتهاد، ولي قضاء مصر، وصنّف المصنّفات الحسان، منها: تفسير القرآن، والقواعد الكبرى والصغرى، والإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز، والإمام في بيان أدلة الأحكام، توفي سنة 660 هـ.

انظر: طبقات الشّافعيّة الكبرى، ج 8/ص 209. البداية والنهاية، ج 13/ص 235 وطبقات المفسّرين للدّودي، ج: 1/ص: 315.  
<sup>14</sup> - الزّركشي، بدر الدين: البحر المحيط في أصول الفقه، تح: محمد محمّد ثامر، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، ط 1، 1421 هـ/2000 م، ج: 4، ص: 357.

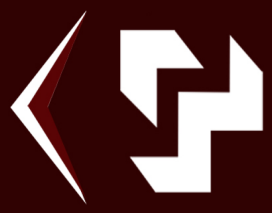


## الدِّينُ وإِعادةُ التَّشكُّلِ في الزَّمنِ الكوفيِّ: طُوفُوا حَوْلَ الْإِنْسَانِيَّةِ

ومستعجلاً في ظلِّ ما نشهده في واقعنا اليوم، من لبس في المعنى وخلط في الأحكام أدّى إلى شبهات طالت الكتاب العزيز من خلال قراءات مغلوبة تتعمّد هدم المباني القرآنيّة القيمية والأخلاقيّة والتشريعيّة وحتىّ العباديّة. وأمّا من جانب المصلحة، والتي يرد في تعريفها- وفق الغزالي- أنّها المحافظة على مقصود الشّرع، أو هي المنفعة التي قصدها الشّارع الحكيم لعباده- وفق البوطي- فهي محلّ إجماع العلماء على أهميّة مراعاتها في التّشريعات الإسلاميّة، على اعتبار أنّها من أبرز القواعد المقاصديّة التي ذكرها ابن عاشور كقاعدة كليّة في الشّريعة، دفعت إلى تداول القول بأنّ الشّريعة كلّها مصالح، فالشّارع الحكيم ينحو نحو تغليب المصلحة في جميع الأوامر والخلق، ذلك ما أكّده القرافي في فروقه حين وصف مراعاة المصلحة بأنّها عادة الله تعالى في الخلق وفي وضع التشريعات. إننا نورد هذه التّفاصيل الأكاديميّة لإبراز الاستعداد الطبيعي للفرد المتديّن للتّعامل والتّفاعل مع النصّ، عبر وسائط ذاتيّة تحقّق الفهم الإنساني العميق والشّامل للوضع البشري في كلّ حالاته، ذلك ما سجّلناه خلال ملاحظة هذه الأزمة الكارثيّة، وتداعياتها الروحيّة والنفسيّة على المتديّنين، وحتىّ على غيرهم ممّن انخرطوا في قدّاس عالميّ يجسّم المشترك الديني، ويُفعل مقوماته وخصائصه، في ظرف استثنائيّ استشعر فيه العبد عجزه، وضعفه، وحاجته الماسّة لرحمة الدّات العليّة، فهو وفق الآية الكريمة "ربّ العالمين الرحمان الرحيم". ولن يتمّ ذلك دون تعميق النّظر في علم المقاصد ذاته، بما يوفّره من فهم خصب للديّن. ولا يخفى أنّ الشاطبي 790هـ قد دّشن توسيع الاهتمام بهذا العلم في موافقاته، حيث نقل النصّ القرآني من خلاله، من وضع لفظيّ/ لغوي- أسّس له الأصوليون من قبله- إلى وضع جامع/ كليّ لا يستقيم بلوغ غائيّة الوحي والتنزيل إلّا من خلاله. فهذا المنهج هو وحده من يمتلك القدرة على تجاوز الفهم التقليدي الذي تضيق به أحوال النّاس، ويمكّن من استجلاء المعاني الممتدّة غير المسّطحة، والجامع بين هموم البشريّة أينما كانت، وكيفما كانت، كما هو حالها اليوم نتيجة تفّشي البواء اللعين.

وإن كان الحرف بوّابة المعنى، فالنصّ مُلزم في روحه لا في حرفه، ولسنا من غلاة المتصوّفة لننطق بذلك، لكننا من غلاة الإيمان الفطري أو الحاجة الفطريّة للإيمان، أليس يقول الله سبحانه وتعالى: "فطرة الله التي فطر النّاس





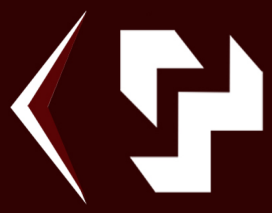
## الدّين وإعادة التشكّل في الزّمن الكوفيدي: طوفوا حول الإنسانيّة

عليها لا تبديل لخلق الله" الروم/30، كما أنّ النبيّ محمّد ذكر: "كلّ مولود يولد على الفطرة.." <sup>15</sup>، إلى جانب أنّنا من غلاة التعاطي الواقعي مع النّص، وإلّا نغدو كما هي عليه غالبية المجتمعات العربيّة الإسلاميّة، في حالة "ضيق سكينزوفريني" بين معتقداتها، وحقائقها الحرفيّة القائمة على الاتّباع والتقليد، خشية الرّيع عن الجماعة ولو كانت تلك الجماعة على غير حقّ، وبين تداويرها الفطريّة غير الخارجة عن روح الدّين بل نعتبرها الأقرب إلى جوهره، فأكثر ما يكون المرء على صدق حين تعاطيه الفردي مع الذات العليّة، ليستحضر- دون منبر أو جماعة أو حلقة، ودون إمام مذهب أو قائد إيديولوجي: "وبشّر الصّابرين" البقرة/155، "واصبر لحكم ربّك فإنّك بأعيننا" الطّور/48، و"لا تحزن إنّ الله معنا" التّوبة/40، وغيرها من النصوص المبشّرة بالفرج والانتصار وتجاوز الأزمت، والمرشدة لكيفيّة إدارتها فرديًا وروحيًا.

ففي زمن الأزمت، يعود العبد لنقائه الأوّل قبل مأسسة علاقته بالمقدّس، فنلحظ تنامي عادة الأذكار، والأدعية، والصدقات، وردّ الأمانات، ورفع المظالم، ونلحظ العودة لاستحضار آيات الرّحمة، والفرج، واللّجوء إلى الله في حركة فطرية ذاتية غير ملزمة، ولا مرتبطة بثواب أو عقاب، قال تعالى: "فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرّعوا" الأنعام/43، وفي زمن الأزمت كذلك تتوحد الفطرة البشريّة في الالتجاء إليه ولو كانت في وضع دينيّ مختلف، قال تعالى: " فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدّين فلما نجّاهم إلى البرّ إذا هم يشركون" العنكبوت/65.

فما بين الفهم المقاصدي المزيّ والمذكي للعلاقة الفرديّة بين العبد والرّب، والدّافع نحو تمثّل ذاتيّ للإيمان، وما بين المنهج التراثيّ النقليّ المنتصر للاتّباع والتقليد والخارج حتّى عنه أحيانًا، ليشكّل ويبلور مدارس فقهية وفكريّة متشدّدة وقع توظيفها إيديولوجيًا لتقسّم المسلمين وتقتل باسم الدّين، بين هذا وذاك يجد المؤمن نفسه لحظة الأزمة ولحظة الخوف، في بعد آخر للدّين ولعلاقته برّيه، بُعد منتصر للتوحيد ولأصل الأديان، ولأصل الإنسانيّة، بعيدا عن كل شعائر التفرقة، وخلافات المذاهب، وعناد الفقهاء.

<sup>15</sup> - حدّث به أبو هريرة كما في صحيح البخاري، رقم الحديث 1358، كما نجده في صحيح مسلم. كما أخرجه أحمد في سننه، رقم الحديث: 15589 وغيرهم.

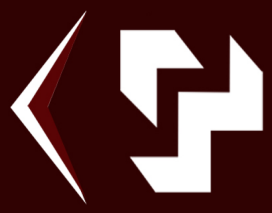


## الدّين وإعادة التّشكّل في الزّمن الكوفيدي : طوفوا حول الإنسانِيّة

فأن تكون مسلماً أو متديّناً على وجه العموم، يعني أن تبلغ بفهمك للدّين، المنهج الإنساني العميق، عندما تنتصر لعمقه، ولجوهره، وعندما تندد بضيق الفهم وتحجّره. عندها تفهم أنّ العلاقة الفرديّة بالمقدّس هي علاقة تحفّز العقل، في حين أنّ الانصهار في الجماعة عن غير وعي، من شأنه أن يغدّي النزعة الدّغمائية ويجهض كلّ امتداد للفكر.

نجح كوفيد - 19 في إعادة تشكيل المسألة الدينيّة والوعي بها، في عمقها، وفي وسائلها، وفي أدواتها، نجح في زعزعة المناهج الموروثة، وفي خلق علائقية جديدة مع النصوص تتوسّل المبادرة الفرديّة، وتعدم المسلّمات التفسيرية الموروثة المغذية للعصبية، نحو قداسة للنصّ وحده بعيدة عن توسّل مباركة "رجال الدّين"، نجحت في عودة فرديّة للأصل، للقراءة بأدوات الرّهبة والأمل، بأدوات الكورونا التي دمرت النزعة الفرديّة وجعلت البشر يؤمنون بأن خلاصهم واحد.

أثبتت أزمة كورونا اليوم، أن لا أحد يمتلك الحقيقة المطلقة، فلا معبد، ولا حرّاس له، أمام قيمة الحياة، كما دفعت هذه المحنة بمعظم المتديّنين إلى استحضار فعل التأمّل، والتدبّر والتفكير في الكون، وفي ملكوت الله، وقدرته وجبروته، متوسّلين لطفه تعالى ورحمته، بدافع ذاتي فطري بعيداً عن كلّ أشكال الوسائط التقليديّة. ما يجعلنا نوّكد مرة أخرى على ضرورة تفعيل القراءة المقاصديّة للقرآن الكريم، وعلى الالتفاف حول النصّ برؤية غائيّة، واستشرافيّة لمضامينه ولأحكامه، من دون تقديس لموروث أنتجه أصحابه كفكر بشري مداره حول النصّ، فالفكر الإسلاميّ بتقديسه لذلك الموروث يغلق على نفسه منافذ الإبداع، ويعطلّ فعل القراءة للمقدّس الأصل: القرآن الكريم، إنّ ذلك الفكر الذي شُيّدت له المعابد، وتكوّن في حرمه كهنوت جديد، أثبت اليوم وفي ظل هذه الجائحة العالميّة، إفلاسه على مستوى إدارة الأزمة، فقد يظهر أصحابه على وسائل التّواصل السّمي البصري، ووسائل التّواصل الاجتماعي بإطلاقاتهم الهيّية، داعين لجهاد مغشوش في العراق وفي سوريا، أو محللين لما يسّعى بجهاد النكاح بلا حياء، ولا ضمير إنساني، أو ديني، أو أخلاقي، وقد يظهروا كذلك مقدّمين فتوى حول رضاع



## الدّين وإعادة التشكّل في الزّمن الكوفيدي: طوفوا حول الإنسانيّة

الكبير، أو مبتكرين لنوع جديد من أنواع الزّواج، هذا دون الحديث عن إبداعاتهم الخالدة في شأن النّساء، وحتى في شأن الكورونا، حيث تبين لأحدهم مثلا، أنّ هذا الوباء ما هو إلاّ عقاب إلهي لتونس جرّاء منعها لوضع النّقاب. غير أنّ هؤلاء لم، ولن يظهروا، لدفع النّاس الذين يصنعون أمجادهم، نحو تقديم مدّخراتهم لأجل العمرة والحجّ للإسهام في إنقاذ الإنسانيّة - ونحن والعالم في ظروف استثنائية ألغت فيها السّعودية الحجّ لهذه السنة كما ألغت العمرة - لم يظهروا لحثّ الملايين من أتباعهم ومريديهم لدفع مدّخراتهم تلك، لأجل إنشاء مراكز ومخابر للأبحاث العلمية والتحاليل البيولوجية، أو لتجهيز المستشفيات أو لبناء غيرها بالمناطق التي لا توجد بها أدنى مؤسّسة صحيّة، وإقناعهم بأنّ صنيعهم ذلك يحتسب عند الله صدقة جارية تدخلهم جنّتي الدّنيا والآخرة فضلا عن إدخالهم التّاريخ - علما وأنّ تكاليف الحجّ بلغت في السّنة الفارطة وفق وزارة الشؤون الدينيّة في تونس، ما يناهز 14000 دت، وأنّ عدد الحجّاج كان قد ناهز 11000 حاجّا - عوضا عن بناء مسجد يوجد غيره على بعد مئات من الأمتار، ففي تونس مثلا لدينا أكثر من خمسة آلاف بين مسجد وجامع.

لم يظهر هؤلاء لتذكير متّبعهم ومريديهم بآيات من قبيل "ومن أحيّاها فكأنّما أحيّا النّاس جميعا.." المائدة/32، أو ليشرحوا ويبيّنوا لهم معاني ودلالات طالعة القرآن "اقرأ" العلق/1.

مما يؤكّد أنّ كوفيد - 19 من ضمن ما نجح فيه، هو تعريته لعدد الحقائق وفي مجالات متعدّدة، سياسيّة واجتماعيّة وغيرها، ومنها المجال الدّيني، وتحديدًا مجال المتعاطين مع القرآن الكريم، والسّنة الشريفة، والموروث الإسلامي عموما، من الدّعاة والمفتين ومن يعتبرون أنفسهم "رجال دين" يؤثرون في شرائح واسعة من المجتمعات الإسلاميّة.

إنّ الفيروس اللعين قد صنع من حيث لا يدري، المتدين الكوني، والمسلم المقاصدي، كما شهّر بشيوخ الفتنة و الاقتتال، صانعي ثقافة الموت ممّن حقّقوا أمجادهم على حساب ثقافة الحياة ومعاني الإنسانيّة، معدمين كلّ أنفاس التحرّر المبتوثة في القرآن الكريم، ذلك أنّ الدّين لا يمكن أن يكون إلاّ إكسير حياة.

# الدّين وإعادة التشكّل في الزّمن الكوفيدي: طوفوا حول الإنسانِيّة



## لائحة المصادر والمراجع

### • القرآن الكريم.

- 1- الجويني أبو المعالي، عبد الملك بن عبد الله بن يوسف (ت478هـ): البرهان في أصول الفقه، تحقيق: عبد العظيم الديب، ط1، الناشر: دولة قطر.
- 2- ابن جرير الطبري، محمد بن يزيد: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تح: عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر للطباعة والنّشر.
- 3- العسقلاني، بن حجر: فتح الباري شرح صحيح البخاري، تح: محمد فؤاد عبد الباقي ومحيي الدين الخطيب، ط1، المطبعة السلفية، القاهرة.
- 4- القرطبي، أبو بكر: الجامع لأحكام القرآن، تح: عبد الله بن عبد المحسن التركي ومحمد رضوان العرقسوسي، مؤسّسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط1، 2006 م
- 5- الزركشي، بدر الدين: البحر المحيط في أصول الفقه، تح: محمد محمّد ثامر، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، ط1، 1421 هـ/2000 م.
- 6- السّبيكي، تاج الدّين، طبقات الشافعيّة الكبرى، تح: محمود محمد الطناحي، دار هجر للطباعة والنّشر والتّوزيع، ط2، 1413 هـ.
- 7- ابن عاشور، محمد الطاهر: تفسير التّحرير والتنوير، الدّار التونسية للنشر، د.ط، 1984.
- 8- رشواني، سامر: الاتّجاه المقاصدي في تفسير بن عاشور، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، إسلاميّة المعرفة، العدد 23، السنة السادسة 2000 م.
- 9- الوزاني، التّهامي: توظيف المقاصد في فهم القرآن وتفسيره، مقال الكتروني.